مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد العاشر/ العـدد الأول
(24 ذو الحجة 1447هـ/ 10 جوان 2026م)، ص 145– 162

مضاعفات المجاعة ووبـاء الكولـيرا في الجزائر خلال سنوات (1866– 1868)

من خلال المؤلِّف القسّيس الكاثوليكي "بـورزي"

The complications of famine and the cholera epidemic in the work

in Algeria During the Years (1866-1868)

"By the Catholic Priest "Burzet"

د/ خامس سامية [1]

[1] المركز الوطني للدراسات والبحث في المقاومة الشعبية والحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

مخبر الدراسات التاريخية – المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة

المؤلف المرسل: **د/ خامس سامية** KHAMES SAMIA البريد المهني: s.khames @cnerh-nov.dz

تاريخ الاستلام: 08 /2026/05 تاريخ القبول: 04 /2026/06 تاريخ النشر: 10/06/ 2026

الملخص: دوّنت العديد من المصادر التاريخية التعقيدات والمضاعفات الخطيرة للمجاعة ووباء الكوليرا في المجتمع الجزائري خلال منتصف عقد الستينات من القرن التاسع عشر، ومن بين أبرز ما دُوّن حول مآسيها، كان بأقلام القساوة والرهبان، فانتقينا منها ما ألّفه الراهب بورزي، حول حالتين استثنائيتين من التعقيد، لِما خلّفتهما من مآسي، وانهيار ديمغرافي حاد، وتدهور في البنية الاجتماعية والاقتصادية، لكنّه فسّر أحداثها وأسبابها بمنظور متحيّز ونظرة تعصّبية دون تمحيص في صحّة الوقائع.

يهدف هذا البحث إلى تحليل الأسباب والعوامل لأخطر معضلتين مترابطتين واجههما الجزائريون خلال سنوات (1867- 1868) ، بوجهة نظر راهب أُرسل في مهمة تنصيرية بمنطقة الشبلي، دوّن في ثنايا مؤلفه خطورة تردّي الأوضاع، التي انعكست سلبًا ديمغرافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، وما زاد الوضع تعقيدا انتشار وباء الكوليرا بمضاعفاته الخطيرة. وتوصّلنا بعد القراءة المتأنّية لفحوى مؤلّفه أن تدوينه لوقائع الظاهرتين الخطيرتين لم يكن مجرد سرد آلي لمخلّفات الأزمتين، بقدر ما كان استنجادًا بالسلطات الفرنسية لتدارك الوضع الانساني، خوفًا من انعكاساته الخطيرة على المستوطنين ومآل المستعمرة بدرجة أكبر. وما الإشادة بجهود لافيجري لتقديم يد العون للجزائريين في أوجّ الأزمتين تحمل في طياتها أبعادًا تنصيرية، تحت غطاء إنساني توطيدًا لدعائم الاستعمار الفرنسي عن طريق التبشير الديني.

الكلمات المفتاحية: قسّيس بورزي؛ كنيسة شبلي؛ مجاعة ووباء؛ مارسيل لافيجري؛ تبشير ديني.

Abstract:

Numerous historical sources documented the severe complications and repercussions of the famine and cholera epidemic that struck Algerian society during the mid-1860s. Among the most notable accounts of these tragedies were those written by priests and monks. From these writings,

we selected the work of the monk Bourzi, who described two exceptionally complex crises and the tragedies they caused, including a sharp demographic decline and the deterioration of the social and economic structure. However, he interpreted these events and their causes from a biased and prejudiced perspective, without critically examining the accuracy of the facts. This research aims to analyze the causes and factors behind the two most serious and interconnected crises faced by Algerians during the years (1867–1868), from the perspective of a monk sent on a missionary mission to the Chibli region. In his writings, he documented the severity of the deteriorating conditions and their negative demographic, social, and economic repercussions. The situation became even more critical with the spread of the cholera epidemic and its devastating consequences. Through a careful reading of his work, we concluded that his account of these two dangerous phenomena was not merely a factual narration of the consequences of the crises, but rather an appeal to the French authorities to address the humanitarian situation, primarily out of fear of its serious repercussions on the settlers and, more broadly, on the future of the colony. Moreover, his praise for Lavigerie's efforts to provide assistance to Algerians at the height of the crises carried implicit missionary dimensions under a humanitarian guise, aimed at reinforcing the foundations of French colonialism through religious evangelization.

Keywords:
Burzet Priest; Chibli Church; Famine and Cholera Epidemic; Marcel Lavigerie; Religious Evangelization.

1. مقدمة:

تكتسي المصادر التاريخية الفرنسية أهمية بالغة في تدوين معاناة الجزائريين إبان الاحتلال الفرنسي، باعتبار مؤلّفيها شهود عيان عايشوا جلّ أو بعض مآسيها، ومنهم من دوّنوا أدق تفاصيلها، وبذلوا جهودًا معتبرة في لملمة واستذكار وقائعها وتوثيقها. ومما لا شكّ فيه أن العديد من هذه المصادر التاريخية تساهم في توثيق الوقائع ورواية تفاصيلها، والتي لا تزال إلى يومنا هذا مخفية عن قصد، أو طالها التجاهل والنسيان. وهي تكتسي أهمية بالغة لكونها تُزيح الستار عن مستورات تاريخنا الوطني بأوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الصحية إبان الحقبة الاستعمارية، إذ لا يزال جوانب منه مُبْهمًا، ويكتنفه الغموض، وغالبًا ما تكون أحداثه مشوّهة عند تدوينه، وأخطر من ذلك بمنظور متحيّز خدمة للمصالح الاستعمارية.

ومن أهم المصادر التاريخية الفرنسية التي وقع اختيارنا عليها للتعريف بأخطر وقائع تسبّبت في كارثة ديمغرافية إبان الاحتلال الفرنسي موسوم بـ "تاريخ الكوارث في الجزائر 1866-1867- 1868: الجراد، الزلزال، الكوليرا، المجاعة، من تأليف "بورزي" راهب كاثوليكي، وهو من أبرز شهود عيان للكوارث الطبيعية والصحية الأكثر فتكًا بالمجتمع الجزائري، بعد معاناة الجزائريين من ظاهرتين متكرّرتين إبان الحقبة الاستعمارية هما: زحف الجراد والزلزال المدمّر، وانعكاسهما سلبًا على الحياة الاجتماعية والاقتصادية للجزائريين. وازداد الوضع سوءًا باستفحال خطر المجاعات وتفشي مرض الكوليرا خلال أشهر من سنوات (1866 - 1867 - 1868)،كانت أقسى على سكان المستعمرة، إذ أودت بحياة عدد معتبر منهم. وإن التفاصيل اليومية التي دوّنها القسّ حول مآسي الجزائريين، لا يمكن تعدادها وحصرها لشناعتها، إذ تجاوزت كل حدود التصوّر العقلي البشري ، لذا

سنكتفي بعرض عيّنات منها، مع التركيز على ما شدّ انتباهنا من الثناء على "الدور الإيجابي المزعوم" للسلطات الرسمية والمستوطنين، وخاصة للكاردينال لافيجري في مواجهة هاتين معضلتين.

بعد قراءتي الفاحصة لمضمونها، سعيت للإجابة على الإشكاليات التالية: ما طبيعة الخطاب الديني والانساني الذي اعتمده في وصف آثار المجاعة ووباء الكوليرا على المجتمع الجزائري؟ وكيف صوّر خطرهما في تفكيك البنية الاجتماعية والاقتصادية للسكان الأصليين؟ وهل كان وصفه موضوعيا أم متأثرا بالخلفية التبشيرية الكاثوليكية؟ وكيف وصف دور السلطات الاستعمارية والمستوطنين في مواجهة مخلّفاتها ؟ وماهو الدافع الحقيقي لتأليف هذا الكتاب وتبليغه إلى أعلى مستويات؟ وهل مجرّد توثيق تاريخي، أم خطابًا يحمل أبعادًا دينية واستعمارية؟

اعتمدت في مساهمتي على المنهج التاريخي، بوضعها في سياقها الزمني والمكاني، ويليه المنهج التحليلي للوقائع كلما استدعت الضرورة إلى ذلك، وكذا المنهج المقارن، بمقارنة ما ذكره بورزي بمصادر أخرى وثّقت لنفس الأحداث ، وختمناه بالتحقّق من مدى نزاهة الطرح أو تحيّزه.

2 . سيرة موجزة لمؤلف الكتاب "بورزي":

2 .1. بين مهام دينية واهتمامات علمية:

الراهب بيلارمان فانسون بورزي Bellarmin – vincent Burzet رجل دين كاثوليكي، استُقدم من فرنسا إلى الجزائر خلال القرن التاسع عشر، وعيّن قسًا في كنيسة الشبلي الواقعة في سهل متيجة[1] (شمال شرق ولاية البليدة). كرّس حياته للعبادة وغيرها من النشاطات الرهبانية وطقوسها اليومية، زيادة على تقديم المشورة الروحية، وخصّص جزءا من مهامه للعمل الخارجي في الرعاية والعمل الاجتماعي مثل الرعاية الصحية، إيواء المحتاجين، والدعم النفسي والروحي.

سبق تعيينه عضوًا في الجمعية العلمية الفرنسية، التي تأسّست سنة 1860 – في ظلّ حكم الإمبراطورية الفرنسية الثانية– التي استمر نشاطها إلى غاية 1870. كانت متميّزة عن الجمعية الفرنسية لتقدم العلوم (AFAS) التي تأسست لاحقًا في عام 1872، بتركيزها على نشر المعرفة العلمية.[2]

أظهر اهتماما بالغا بالنشاطات البحثية للجنة اكتشاف الجزائر العلمي، التي تنوّعت مهامها بين الدراسة والبحث في الموروث التاريخي والثقافي للجزائريين، والجانب الأثري والانتروبولوجي والجغرافي خدمة للاحتلال الفرنسي في المستعمرة الجزائرية. وأبدى استعداده لمشاركة علماء الآثار اهتماماتهم بتوفير معلومات تمهيدية لمباشرة التنقيب عن الآثار والمعادن، حيث نُشرت له رسالة في جريدة "الأخبار"[3] بتاريخ 23 أوت 1867، حملت توقيعه الوظيفي الكهنوتي "القس بورزي".[4]

تضمّنت الرسالة خبر "اكتشاف عدة "شواهد قبور" **Pierre tombale** غير بعيد عن معسكر الحراش القديم، في أرض مغطاة بأشجار النخيل القزمية والشجيرات، وخلال عملية تنظيف وتطهير للموقع، تم العثور على آلة زراعية "محراث". وعلى عمق تراوح بين عشرة وخمسة عشر سنتيمترًا، اكتشفت أربعة أحجار كبيرة الحجم: أحدها كان لا يزال مدفونًا بالكامل في التربة المحيطة به؛ وآخر مكشوف تمامًا، لا يحمل أي نقش. أما الحجر الثالث فتمّ تكسيره لاستخدامه في تشييد بناء جديد؛ ولم

يتبق منه سوى بضع شظايا بآثار الأحرف التي نُقشت عليه، بينما يحمل الحجر الرابع آثار نحت الأحرف، نقلها بمنتهى الدقة بالترتيب الآتي:

DIS.MANIBU
S.SEXSVMMU
SCPNI.FIXMAC
XICVSSINXESPRI
NCEPNORVXXX (5)

اشتهر القس "بورزي" بتأليفه لكتابين، الأول موسوم بـ :
Histoire des désastres de l'Algérie (1866-1867-1868) Sauterelles , tremblement de terre, choléra, Famine (6)

من منشورات المطبعة المركزية الجزائرية (الجزائر) سنة 1869، وثّق فيه أخطر الكوارث الطبيعية والصحية في الجزائر خلال المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر (1869). ومؤلفه الثاني معنون بـ **جمال الجزائر: أرضها، سكانها الأصليين والأوروبيين، ومناخها.**
Histoire des beautés de l'Algérie sa terre, sa population indigène, son climat

تنوّعت كتاباته فعكست شغفه بالمنظر الطبيعي الخلاب للجزائر، واختصاصه في صياغة المادة الإخبارية، مع الحرص على تدوين أصعب التحدّيات للمبشرّين التي كانت تعيق أنشطتهم، وكيفية مواجهتها في ظلّ أزمات صحية، واقتصادية واجتماعية تسبّبت في كارثة ديمغرافية عرفتها البلاد، مع تعليل أسبابها بطبيعة الحال من منظور استعلائي، تقابلها نظرة دونية وتحقيرية للجزائريين.

2.2. التعريف بالمحتوى العام للكتاب:

عدد صفحات الكتاب مائة وثمانية عشر (118) صفحة، تتقدمها صفحة تحمل عنوان الكتاب واسم مؤلفه، وبيانات النشر منها اسم دار النشر، ومكان وسنة النشر – المطبعة المركزية الجزائرية، الجزائر، 1869– ويليها صفحة كاملة تضمّنت في فحواها مخاطبة رسمية وجّهها إلى قاضٍ عام (عسكري) برتبة "جنرال" أفاد فيها ما يلي:"من خلال كتابة تاريخ وافٍ عن الكوارث التي حلّت بالجزائر بين عامي (1866 و1868) ، أردت أن أقدّم في مجلّد واحد مآسي مستعمرتنا الجزائرية خلال هذه السنوات بكل التفاصيل التي عايشتها بنفسي، وتلك التي استقيتها من مصادر عامة".(7)

دوّن الراهب في ثنايا مؤلفه وصفا دقيقا لأعقد الأزمات الانسانية بالجزائر خلال عقد الستينات من القرن التاسع عشر، استمرت ثلاثة أعوام على التوالي، مع تعليل الأسباب والعوامل التي زادت من حدة ومعاناة الجزائريين، وأودت بحياتهم بعد أن دُمّرت كرامتهم. ووزّع مضامينها على أربعة فصول، تتفرّع إلى عناوين فرعية وخاتمة. ويشكّل الفصلان الأول والثاني من الفصول الأربعة للكتاب مدخلين مُهمّين لا يخلُوان من أهمية لاستيعاب وقائع السنين العجاف التي مرّت على الجزائريين، في أحلك مرحلة من الاحتلال الاستعماري. (8)

في صدارة هذه المعاناة، حدوث عدة كوارث طبيعية، في مقدمتها اجتياح متكّرر لأسراب الجراد والتهامها لكمّ معتبر من الزروع والنباتات منذ 1864، وما تبقى منها أُتلف مما تسبّب في "تهديد الأمن الغذائي للجزائريين". وشهدت البلاد أيضا زحف

الجراد عام 1865، وتكرّرت نفس الظاهرة بمزيد من الضرر سنة 1866 [9] إلى حدّ إطلاق عامة الناس على هذا العام اسم "عام الجراد". ولم تقتصر مخاطر هذه الحشرات الضارة على المحاصيل الزراعية فحسب، بل كانت مؤشّرا لانتشار عدوى أمراض فتاكة من أخطرها "الطاعون" **La Peste** و "التيفوس **Le Typhus** ". [10]

وعلاوة على ذلك، زادت الهزّات الأرضية للزلزال العنيف في 2 جانفي 1867 من معاناة الجزائريين، حيث دمّرت قرى ومزارع عدة مدن أبرزها البليدة، موزاية، الشفة والعفرون، وما زاد الوضع تعقيدا اجتياح موجة جفاف لم يسبق لها مثيل، حيث قلّت الأمطار التي أدّت إلى إتلاف المحاصيل الزراعية وتدهور الغطاء النباتي للمراعي وإفقاره. كل هذه العوامل كان تأثيرها واضحا من جرّاء أزمتين خطيرتين خلال سنوات (1866- 1867- 1868)، حيث تفشّى وباء (الكوليرا)، وازداد الوضع سوءًا باتساع نطاق المجاعة الكبرى، فتأزّم الوضع وانعكس سلبًا على الأوضاع الصحية والاجتماعية للجزائريين، نوضّحها من خلال ما دوّنه الراهب في مؤلفه.

3 . أخطر الأزمات الصحية: تفشّي وباء "الكوليرا" :

3 . 1. أسباب انتشاره:

افتتح الراهب الفصل الثالث من مؤلفه بوصف تدهور الواقع الصحي للجزائريين، خلال ثلاثة أشهر (أوت ، سبتمبر وأكتوبر) من عام 1867، فبعد معاناة الناجين من الاكتئاب الحاد بسبب مخلّفات الزلازل المدمّرة، والتلوّث البيئي من جرّاء زحف وغزو الجراد، واجهوا أعقد وضعية صحية تتمثل في عدوى الوباء القاتل "الكوليرا"، وأرجع سبب انتشاره أولا إلى وسيلة "النقل البحري" إثر رسو السفن في الموانئ، فانتقل تدريجيا إلى باقي المدن حيث الكثافة السكانية، ومن هناك امتد إلى باقي القرى والأرياف، وخاصة في مناطق تمركز القبائل المقيمين غالبا في الأكواخ (القوربي) Gourbis [11] النائية، التي تفتقر إلى أدنى وسائل العيش الكريم. [12]

وأرجع أسباب انتشار هذا الوباء المعدي أيضا في الأعداد الهائلة للجراد الهالك في الحقول، والغارق في الأنهار، وفي الطين الرّاكد، وفي الجداول المائية التي كادت تجفّ بسبب الجفاف القاسي. ونظرا لتحلّل المواد العضوية للحشرات، عمّ التلوّث في الوسط البيئي، فخلّف حصيلة معتبرة من الوفيات خاصة في أوساط الأطفال الرضّع. [13]

3. 2 . تبعاته الضارة:

أبدى الراهب تذمّره من سنوات العجاف التي حلّت بالبلاد محلّ سنوات الرخاء، حيث تضاءلت نسبة تساقط الأمطار لعدة أشهر، بعدما كانت غزيرة في فصل الشتاء، تُسقي الحقول القاحلة بانتظام. وما عقّد الوضع أكثر هبوب عواصف رملية حارة من جنوب البلاد إلى شمالها في أوجّ انتشار وباء الكوليرا، فجعلت المناطق المتضرّرة تواجه أزمة حادة بسبب الجفاف الحاد والموت الحتمي للسكان بنسبة أكبر للأمهات والأطفال الرضّع. [14] وهذا مؤشر ديمغرافي آخر لقياس تدهور النظم الصحية خاصة خلال هذه الفترة الاستعمارية ، ويعكس بشكل واضح ضعف الرعاية الصحية، ونقص التغذية، وسوء البنية التحتية الطبية.

وإزاء هذا الوضع المزري، أبرز الراهب انشغال رئيس أساقفة الجزائر "لافيجري"[15] – المقيم آنذاك بفرنسا لدواعي صحية– في مراسلته بتاريخ 8 أوت 1867 للقائمين على الكنيسة في المستعمرة الجزائرية، وهلعه الشديد من نبأ تفشي وباء الكوليرا الذي بات يهدّد أبرشية الجزائر، فأسدى توجيهات للأمين العام للأبرشية السيد أنسلين لتقديم مبلغ قدره 2500 فرنك، وتوزيعه على المتضرّرين عن طريق لجان تحت إشراف "الأخوات"[16] والكهنة. ولم يخف امتنانه وتقديره لرئيس الأساقفة، وعبّر عن انبهاره بحماس وإخلاص لافيجري "لتقديم العون والعزاء لشعبه، ورضوان الله ومرضاته، نظير تضحيته وأعماله الجليلة النافعة للدين وللمستعمرة". [17] وما يستوجب ذكره في هذا السياق، أن الأوضاع الاقتصادية المزرية التي حلّت بالجزائريين في بداية هذه المرحلة (مجاعة (1867)، استغلها فعلا لافيجري إلى أبعد الحدود بإطلاق العنان لحملته التنصيرية، فانتهز محنة السكان الأصليين لتحقيق مآربه، خاصة بعد تعيينه على رأس أسقفية الجزائر. [18]

وادعى بورزي أن وباء الكوليرا لم يمثل تهديدًا مباشرًا لحياة الأوروبيين بشكل عام، بل سلموا من عدواه عكس السكان الأصليين الذين وصفهم بـ "العرب التعساء"، وجزم أن الدمار الذي أحدثه هذا الوباء بين قبائلهم كان هائلاً، بسبب حياة البؤس وطريقة عيشهم في الأكواخ، حيث ينامون إمّا على أرض جرداء أو حصير قشّ رثّ، تغطّي أجسادهم سوى برانسهم الممزّقة، وغالبا ما يشربون المياه الآسنة، ويتغذون على الخبز والتين الشوكي والبطيخ الفاسد، ومختلف الأعشاب والجذور، وهذا ما جعلهم عُرضة لتأثير الأمراض المعدية التي انتشرت بشكل تجاوز المعدّل المتوقّع.[19]

وبدلاً من ربط أسباب انتشار الوباء واستفحال خطره بسبب سياسة المستعمر، انتقد بشدّة سلوك الجزائريين بخصوص الاجراءات الاحترازية التي اعتمدوها لمواجهة وتجنّب هذا المرض المعدي، ذكر منها العلاج ببركة وكرامات الأولياء الصالحين "المرابطين" الذين يبيعونهم "التمائم"، ومحدودية معرفتهم الطبية التي لا تتعدى بعض جلسات "الحجامة"، زيادة على جهلهم لأبسط شروط النظافة والرعاية الصحية للمرضى. [20]

وأقرّ أن داء الكوليرا كان سببًا رئيسيًا في العدد المعتبر للوفيات، حيث أودى بحياة الجزائريين بعد حرمانهم من أبسط المساعدات وشروط العيش الكريم، إلى حدّ تناثر جثثهم في الأكواخ، وعلى الطرقات، وفي الخنادق والحقول في عزلة موحشة، أدّت إلى انبعاث روائح الجثث المتعفنة، التي كشفت عن نهايتهم المروّعة بعد أن وافتهم المنّية. [21]

ولإحصاء نسبة الوفيات، أجبرت الإدارة الفرنسية شيوخ القبائل على الحضور يوميًا للإبلاغ عن هلاك أفراد قبائلهم، إلا أن هذه الإفادات كانت غالبًا غير دقيقة، ومردّ ذلك حسب الراهب "عدم اهتمام السكان بتسجيل مواليدهم ووفياتهم"، ونفور "الأهالي" من الادارة الاستعمارية. [22]

واستنادًا إلى عدة مصادر، اكتفى بتقديم حصيلة الضحايا بقبائل منطقة واد رهيو (Oued Riou) بـ (غليزان) قُدّرت بـ "أزيد من ثلاثين حالة وفاة يوميًا ابتداء من 6 سبتمبر ... ". وبالدويرة، خلال فترة الوباء، وتحديدا من الثامن سبتمبر إلى الرابع عشر من أكتوبر،إذ لقي مئتان وخمسة وثلاثون (235) من السكان الأصليين حتفهم.[23]

ظلّت معدّلات الوفيات ثابتة تقريبًا في كل مكان، وشوهدت قبائل بأكملها تُباد تقريبًا حتى آخر فرد فيها، ونفس المصير لقيه السكان العرب "المتعايشين" مع المستوطنين، إذ فتك بهم الوباء بالرغم من تمتّعهم بظروف معيشية جيّدة إلى حدّ

ما. وختم وصفه للوضع الفظيع من جرّاء انتشار الوباء، بتقديم تقدير تقريبي مفاده "أن عُشر السكان الأصليين مصيرهم الموت الحتمي"، وعدد الضحايا مرشّح للارتفاع وصل إلى رقم مذهل قدره 250,000 حالة وفاة خلال فترة قصيرة لا تتجاوز شهرين. (24)

3. 3. التنويه بـ "جهود إغاثة" لضحايا الوباء:

بالغ الراهب في الإشادة بالحرص الدائم للسلطات العليا لإدارة الاحتلال ويقظتها، لتقديم يد العون للجزائريين، وحصرها في:

- تجهيز ناقلات الإسعاف والمأوى للأشخاص المنكوبين والمحرومين من جميع وسائل الإغاثة والعلاج.
- إرسال توجيهات وتعليمات لمكافحة الوباء والحدّ من انتشاره، بتعزيز الخدمات الطبية في المستعمرة.
- تخصيص "ملاجئ" لرعاية المصابين وتخفيف معاناتهم. (25)

انتقد بورزي عدم الالتزام العلاجي في أوساط الجزائريين، مركّزا على ظاهرة رفض غالبية العرب وامتناعهم من دخول ملاجئ فُتحت خصيصا لاستقبال المنكوبين، مدّعيا مردّ رفضهم لتناول الأدوية المجانية التي تُوزّع عليهم في منازلهم، لكراهيتهم الشديدة للأوروبيين، ولاعتقادهم الخاطئ أن مستحضرات الأدوية، الغرض منها تسميم المصابين، لذا نعتهم بـ "المنغلقين على كل فكرة خيرية، وعلى كل شعور طيّب في القلب البشري، مفضّلين الموت بمعاناتهم..." . (26)

وكان من الأجدر على الراهب ذكر أن هذه الملاجئ، عرفت تفاوتا ملحوظا في الخدمات الصحية بالمستوصفات المخصّصة للمستوطنين وتلك الملاجئ في العراء للأهالي المنكوبين، وأنّها استغلت في التبشير الديني ومحاولة تنصير الجزائريين المرضى، باستخدام الراهبات الممرضات لهذا الغرض، اللواتي باشرن مهمة تلقين المرضى "تعاليم النصرانية (المسيحية) حول الإيمان بإله واحد في ثلاثة أقانيم (الثالوث المقدس: الآب والابن والروح القدس)، وبأن يسوع المسيح هو ابن الله ومخلّص البشرية، وأخطر من ذلك إرغامهم على قبول التعميد بغير رضاهم عند الاحتضار. (27)

3. 4. الانتقاد اللاذع لطريقة دفن الموتى المُصابين بالوباء:

أبدى المؤلّف امتعاضه من الطريقة غير الاحترازية في دفن "العرب" لموتاهم الذي يتم على عمق ضحل، وربطها بظاهرة "الكسل التي يتصف بها الجزائريين"، إلى حد انعكاسها سلبًا على جميع عاداتهم وتصرفاتهم، بما فيها طريقة دفن موتاهم التي وصف أدق تفاصيلها، مدّعيا أنه بسبب تجّنب عناء نقل الموتى لمسافات طويلة، تنتشر المقابر في كل مكان، وتُحفر القبور على عمق لا يتجاوز ستين سنتيمترًا، والاكتفاء بوضع الجثة في اللحد، ملفوفة بقطعة قماش بيضاء، تُغطى بطبقة رقيقة جدًا من التراب. ولمنع ابن آوى والضباع من نبشها وافتراسها، يُبطنون ترابه بأغصان شوكية، مثل أغصان السدر البري، وهو ما لا يحميها دائمًا من أنياب هذه الحيوانات المفترسة، كما تتسبّب حرارة الصيف في تشقّق هذه الحفر، فتنبعث منها روائح كريهة، تتسبّب بسهولة في تلوّث الهواء.(28)

وقد أعرب عن ضجره وانزعاجه كبقية المارة بالقرب من المقابر، من الروائح الكريهة المنبعثة من القبور، مما جعل السكان عرضة لوباء جديد أكثر فتكًا من الأول، بمجرد أن تعمّ العدوى في القرى والدواوير والجبال والسهول بأكملها. واستشعارا للخطر الداهم للوباء وتفشيه في أوساط المستوطنين الأوروبيين خاصة، وجّه نداء استغاثة إلى السلطات العليا للتدخل مجدّدا في مثل هذه الظروف، باتخاذ إجراءات صارمة لإجبار "العرب" على فتح حفر أعمق لدفن موتاهم وردمها كما ينبغي. (29)

4. العواقب الكارثية للمجاعة (1967– 1968):

4 . 1 . أسبابها ومظاهرها:

باعتباره أحد شهود عيان لأخطر الكوارث الطبيعية حلّت بالبلاد خلال السنتين المذكورتين، زيادة على انتشار مجاعة عامة مروّعة، ألحقت دمارا هائلا، وحصدت ضحايا لا حصر لهم زادت الوضع تعقيدا، حصر الراهب أسبابها في:

- زحف الجراد وانتشاره عام 1866 في جميع أنحاء الجزائر، وسيطرته على المستعمرة بأكملها، مما تسبّب في إتلاف المحاصيل الزراعية والأشجار والغطاء النباتي.
- ارتباط المجاعة المروّعة إلى حد كبير بفترات الجفاف، حيث انخفضت معدّلات هطول الأمطار عن المستوى الطبيعي، فأفضى الوضع إلى حياة عوز وضنك(30)، تجلّت بعض مظاهره في:

- تسكّع الفقراء في الأرياف لاقتلاع جذور النباتات، وتناول أقلّ قدر ممكن منها، حفاظا على حياتهم ولتجنّب الموت جوعًا، مع الاضطرار للبحث في فضلات الخيل عن حبوب الشعير غير مهضومة لتناولها أيضا.
- العثور يوميا في الطرقات، والأحراش، والشوارع، والخنادق، وفي الأنهار، على جثث هزيلة، التهمتها جزئيا الحيوانات البرية (الضباع وبنات آوى)، وهي أدّلة قاطعة على حالة البؤس التي وصل إليها "العرب".
- تضاءل الينابيع وجفافها، واضطرار المستوطنين، كل شهر، وأسبوع، إلى حفر آبار جديدة للحصول على القليل من مياه الشرب.

وخلافًا لما أشار إليه الراهب حول الوضعية المزرية للجزائريين من جرّاء الجفاف العام الذي عمّ البلاد، أفاد أن المستوطنين أقلّ تضرّرا من مخلّفات هذا القحط المدمّر، لامتلاكهم أحسن الأراضي وأكثرها ماءً، بخلاف الفلاحين الجزائريين الذين جرّدوا من أراضيهم لأسباب واهية، (31)بل اقتصرت شهادته على تقديم الصورة القاتمة لأهوال المجاعة وآثارها المدمّرة على السكان العرب، عكس الأوروبيين الذي آدعى نجاتهم من انعكاساتها الخطيرة. (32)

4. 2. أخطر مخلّفاتها : الهجرة الاضطرارية:

من جرّاء انتشار الوباء القاتل واستفحال الجفاف الشديد الذي عمّ كامل القطر الجزائري، اضطرّ عامة الناس إلى مغادرة الأراضي القاحلة طلبًا للمساعدة، فتشكّلت مواكب من المعوزين ببضع أثواب بالية، لاجتياز مساحات شاسعة تفصلهم عن المراكز الأوروبية، مرورا عبر الأدغال التي مزّقت أقدامهم العارية، غير مكترثين بمشاق الطريق ولا بحرارة الجو الخانقة. (33)

تحدّث الراهب مطوّلا عن الوضعية المزرية للأمهات المرضعات، استقاها من عدة روايات دوّنها رهبان –شهود عيان– منهن نساء كُنّ يلهثن منهكات يحملن أطفالهن على الظهور كالقردة بحثا عمّا يسدّ رمق جوعهم، ومنهن امرأة فقيرة كانت تحمل طفلين على حجرها، ترغب في إرضاعهما، لكن حالتها المزرية وثدييها المكشوفين أظهرت بوضوح أن هذين الصغيرين خُذلا في أملهما، إذ لم يعد لدى الأم حليب الرضاعة. وتكرّر مشهد مأساوي آخر في وهران، إذ كان طفل يحتضر بين يدي أمه، بعد فشل مساعيها لإنقاذه بسبب انقطاع حليب الرضاعة. (34)

وسرد حالات كثيرة للوفيات بسبب الجوع، مما دفع بالنساء الجائعات بـ "تنس" أيضا لجمع الحبوب لم تُهضم، من فضلات الخيول بإسطبلات الجيش الفرنسي، فيغسلنها، ثم يأكلنها؛ وبلغ الأمر بالأطفال أيضا التنازع حتى مع الكلاب الضالة على بقايا عظام رُميت في أكوام القمامة، فيكسرونها، ويبتلعونها. وكانت أوراق الخس والملفوف والجزر الملوّثة بالقذارة طعامًا شهّيًا بالنسبة إليهم. وأضاف إلى هذه المشاهد المروّعة، تفشي ظاهرة التسوّل بشوارع المدينة التي كانت تعجّ بحشود من السكان المحليين من جميع الأعمار والجنسين، بعضهم يتسوّل النقود، وآخرون قطعة خبز لسدّ رمق الجوع. (35)

4. 3. الترحيل الإجباري للمنكوبين:

أشاد الراهب مِرارا بدور الجمعيات الخيرية في تقديم يد العون للمنكوبين الذين تزايدت أعدادهم ومعاناتهم، وخصّ بالذكر اليزابيت شارلوت صوفي Élisabeth Charlotte Sophie زوجة المارشال ماكماهون، (36) التي "ضربت أروع الأمثلة في تفانيها " بتقديم وجبات إطعام بنفسها وتوزيعها على الفقراء الجوعى في مأوى خاص لهم. ونوّه أيضا بجهود رئيس الأساقفة استنادا على إفادته في احدى مراسلاته مؤرخة في 6 أفريل 1867: "في الجزائر العاصمة، نقوم بإطعام أكثر من ألفي مواطن. وتقوم جمعية سيّدات الخير بتوزيع وجبات الطعام على ما يقرب من ألف ومائتي شخص منهم؛ وتقدّم الأسقفية المساعدة المباشرة لستمائة شخص، بينما تقدّم الملاجئ المختلفة المساعدة لحوالي ألف شخص". (37)

وإزاء هذا الوضع الخطير الذي شمل المقاطعات الثلاث للبلاد من الخطر الحاد للمجاعة، وثّق الراهب التدفّق الهائل للبؤساء من كل حدب وصوب باتجاه تمركز المستوطنين الأوروبيين، ومحاصرتهم لأبواب المدن، أدّت إلى اكتظاظ الساحات العامة بالوافدين الجوعى بحثا عن أي مصدر للعيش، واجتياحهم كل القرى "بعيون غائرة، وأطراف هزيلة، ملفوفين ببقايا ملابسهم الرثّة، تنبعث منها رائحة كريهة"، وهذا ما اعتبره تهديدا للأمن والصحة العمومية للمستوطنين.

ومن بين التدابير التي اتخذتها سلطات الاحتلال لصدّ هذا الزحف الهائل للمتضرّرين من المجاعة، ذكر "بورزي" منها، إنشاء "مواقع عسكرية" في جميع القرى لحماية المحاصيل الزراعية للمستوطنين، واعتماد إجراءات صارمة لتخليص الأوروبيين من هذا الوضع، فجمعت جميع العرب، رجالاً ونساءً، وأطفالاً الذين يجوبون الشوارع، واقتادتهم لإعادتهم إلى مواطنهم وقبائلهم الأصلية، وقد تكفّل بهذه المهمة عساكر الجيش الفرنسي. (38) وكان نصف هؤلاء البؤساء قد سِيقوا عنوة، عُراة، بطونهم خاوية، وبلا أمتعة ولا مؤن "لقد كان بؤسًا فظيعًا، بكلّ عُريّه". ولإعطاء فكرة عن الحجم الهائل لهذه الحشود التي تدفّقت على المراكز الأوروبية، خصّ بالذكر مستغانم، التي بلغ العدد الإجمالي للمتسوّلين المطرودين من المدينة 1270 رجلاً وامرأة وطفلاً في الفترة الممتدة من 30 سبتمبر إلى 4 أكتوبر 1867، أي في غضون خمسة أيام فقط. (39)

4. 4. عيّنات إحصائية لضحايا المجاعة:

رأى الراهب عدم جدوى تقديم الدولة الفرنسية مبالغ طائلة لهؤلاء المنكوبين؛ وتستنفد المؤسسات الخيرية مواردها في الصدقات، بالرغم من تأكيده أن هذه المجاعة حصدت عددًا معتبرًا من الضحايا الجزائريين رجالاً ونساءً وأطفالاً، بعد أن لقوا حتفهم جوعا على جوانب الطرقات، وفي الحقول، وداخل المدن والقرى. وما تبقى من الجوعى لم يجدوا حتى طعاما قذرًا يلتهمونه، ومن شدّة ضعفهم لا يستطيعون حتى الوصول إلى أراضي المعمّرين لسدّ رمق جوعهم، فكان مصيرهم الموت الحتمي في حفر الطرقات، وفي الأحراش، وفي العراء بالمناطق العسكرية الشاسعة. وعلى سبيل التوضيح لا الحصر لمآسي هذه المجاعة الرهيبة التي عمّت كامل البلاد، اكتفى بذكر عيّنات من الضحايا بعدة مناطق بغرب البلاد، [40] ذكرها على التوالي:

– **بمقاطعة وهران**، وتحديدا بمنطقة معسكر، عُثر في الثالث ديسمبر 1868 على عشر جثث لسكان محليين ماتوا جوعًا. وفي اليوم التالي، لقي أربعة عشر آخرون حتفهم بالطريقة نفسها. وفي اليوم الذي يليه، نُقلت جثث ثلاثة وعشرين من هؤلاء المنكوبين إلى المقبرة ودفنهم من قِبل الأهالي بغير رضاهم. وبذلك بلغ عدد الضحايا ثمانية وأربعين ضحية في ثلاثة أيام. ووُجدت جثث هؤلاء الموتى في حفر، وفي قيعان الوديان، والطرقات، وحتى في مجاري الأنهار، وبالقرب من قبور محفورة مسبقا، حيث كان يقصدها كل من يشعر باقتراب أجله.

– **بمعسكر** بلغ الرقم الرسمي للوفيات 2540 عربيًا ماتوا جوعًا من أكتوبر 1867 إلى ماي 1868.

– **بغليزان** وخلال الفترة نفسها، سُجِّلَت 1353 حالة وفاة بسبب الفقر.

– **بمستغانم**، وخلال الفترة نفسها، سُجِّلَت 1853 حالة وفاة بسبب الجوع.

– **بمقاطعة الجزائر**، وتحديدًا في **مليانة** ، من أكتوبر 1867 إلى 11 أفريل 1868، بلغ عدد وفيات الأهالي أسماهم "أجانب"، بسبب الفقر، كما هو مسجّل في سجّلات الدفن، ألفًا ومائتين وسبعة (1207).

– **بأورليانفيل** (الأصنام سابقا– الشلف حاليا)، في جانفي من نفس السنة بلغ عدد المهاجرين العرب الذين لقوا حتفهم جوعًا داخل أسوار المدينة خلال شهرين أربعمائة شخص؛ أما خارج حدود المدينة، توقف إحصاء عدد الوفيات، دون ذكر الأسباب.

أكّد الراهب في عدة مواضع من الكتاب، صعوبة التعرّف على العدد الحقيقي للضحايا، مشيرًا إلى أن أغلب الصحف الفرنسية اتخذت موقفا مثيرا للريبة – الصمت التام– واكتفى بما أوردته صحيفة مونيتور دالجيري Moniteur d'Algérie[41] خلال أشهر: أكتوبر، نوفمبر وديسمبر 1867، وأثناء أشهر جانفي، فيفري، مارس وأفريل من عام 1868، التي أفادت قراءها بأن العدد الإجمالي التقريبي للضحايا يُقدّر بـ "مئة وثمانية وعشرين ألفا وثمانمائة واثني عشر عربيًا لقوا حتفهم جوعًا في المقاطعات الثلاث"،[42] وهذه دلالة واضحة على التكتّم والتواطؤ لإخفاء حقيقة الواقع المرير بالجزائر، حيث لم يخبر الجنرال مكماهون الامبراطور "نابليون" بحقيقة المجاعة في الجزائر وضحاياها– حتى لا تعظّم هذه المشكلة عند السلطات بباريس، وحتى لا يستغلها النظام المدني لكسب مطامحهم بضرب النظام العسكري القائم. [43]

4. 5. من مخلّفات المجاعة، تفاقم الظاهرة الإجرامية:

ادعى الراهب أن الحكومة الفرنسية بذلت قصارى جهدها للتخفيف من المعاناة المروّعة؛ بتخصيص مبالغ معتبرة لـ "مساعدة السكان العرب"، كما فتحت السلطات عدة مواقع لتوفير فُرص عمل لهؤلاء المنكوبين ومنحهم سبل العيش، لكن عددًا قليلاً جدًا منهم التحق بهذه المواقع، أما الذين لم يحصلوا على عمل؛ أُجبروا على البقاء تحت حراسة عسكرية مشدّدة كما لو كانوا مُدانين. وأشاد الراهب بالمستوطنين الذين عرضوا بدافع الشفقة على هؤلاء التعساء فُرص العمل لكنهم رفضوا، وفي حالة قبول عروض العمل لنصف يوم، أو يوم واحد على الأكثر؛ يختفون في اليوم التالي.

ودون التحقيق في صحة الأمر من مصادر موثوقة، أفاد أن الفقر المدقع السائد آنذاك يُعدّ من بين المبرّرات التي دفعت بـ "العربي" لإشباع نزعته للنهب، لخّصها في العبارة التالية "**العربي لِص بالفطرة، كسول، يموت أو ينهب المحاصيل والماشية**". وفي حالة إثبات ارتكاب هذا الجرم المزعوم تمتلئ السجون عن آخرها بهؤلاء "اللصوص" وأعرب عن استيائه لارتكاب جرائم القتل في الطرقات والمنازل، وارتفاع معدّلات السلوك الإجرامي بسبب الجوع بقوله "تجرّأت وحوش آدمية على تقطيع وطبخ وأكل أجزاء من لحوم البشر..."، سرد بعض أحداثها الشنيعة نقلا عن احدى مصادر إخبارية، مضيفًا أن معظم الذين ارتكبوا هذه الأفعال لقوا حتفهم، ومن تبقى منهم تمّ اعتقالهم".[44]

4. 6. السياق العام لاستحداث دار للأيتام:

بعد التقدير الاحصائي الذي قدّمه الراهب لعدد العرب الذين لقوا حتفهم بسبب الكوليرا و المجاعة من سبتمبر إلى جوان 1868 المقدّر عددهم بـ 500.000، أكّد أنه من بين هؤلاء الضحايا الكثيرين، كان هناك آباء وأمهات ماتوا تاركين وراءهم أطفالًا بلا عون ولا مأوى، عاجزين بحكم صغر سنّهم عن تلبية احتياجاتهم الأساسية، فوقع عدد كبير من هؤلاء الأيتام بين براثن الجوع والفاقة. وفي موضع آخر زعم حرمان غالبية اليتامى "الأهالي" من ذويهم، حيث تخلوا عنه، ولم يكترثوا لمصيرهم ، وهذا ما أفادت به احدى الصحف الاستعمارية.[45]

وما استنبطناه في هذا السياق، المبالغة المفرطة في تنويه الراهب بـ "الموقف الانساني" لرئيس أساقفة الجزائر "لافيجري" إثر هلاك عدد معتبر من الأطفال، و"تحمّسه لإنقاذ ما تبقى منهم والإحسان" لمن أسماهم بـ "المحكوم عليهم بعذاب الجوع"، وهذا ما أفاد به في إحدى مراسلاته للراهب بتاريخ 17 جانفي 1868، وجّهها كذلك إلى جميع رجال الدين التابعين له، وأعلمهم من خلالها استجابة الجمعيات التبشيرية الكاثوليكية لنداء الاستغاثة الذي وجّهه شخصيا لمساعدة الأيتام والأرامل مع أطفالهم.

وأحاطهم علمًا أيضًا بافتتاح دار "لرعاية الأيتام" في الجزائر، مع الحرص على إبلاغ الراهبات والسلطات المدنية بتكتّم، واستعداده لاستقبال وتربية جميع الأيتام ذكورا أو إناثا مجانًا، لكنه ألزمهم بشرطين، **الأول**، أن يكونوا أيتاما، فقدوا أباءهم وأمهاتهم، أو هجر الوالدين لأبنائهم، **والثاني**، أن يكونوا دون العاشرة من العمر، وإعلامهم من عدم جدوى إرسال أطفال لا يستوفون هذين الشرطين؛ بالنظر إلى تجربته مع هذه الفئات العمرية، حيث ثبت له المزاج المتقلّب للعرب، حيث يستحيل إبقائهم بعد هذا السن في المؤسسات التبشيرية. وفي الأخير، نبّههم إلى ضرورة تفادي سوء الفهم، بحيث "لا يسعى إلى تعميد

الأطفال الجزائريين، بل الاكتفاء بتربيتهم من قبل "الآباء البيض" و"الأخوات الراهبات" وتعليمهم كيفية كسب قوتهم، وعند بلوغهم سن الرشد، فلهم حرية اختيار عقيدتهم الدينية ". (46)

وعكس ما أفاد به في فحوى الرسالة المذكورة أعلاه، تفيد الوقائع التاريخية أن أول تجسيد لمشروع تنصيري للأطفال الجزائريين بدأ في الجزائر العاصمة على إثر مجاعة 1867، حيث جمع لافيجري ما يقرب من 1753 طفلا جزائريا في ملجأ ابن عكنون، أغلبهم من المناطق المحيطة بسهل الشلف، تحديدا مليانة، ثنية الحد، شرشال وتنس، غير أن العديد منهم هلكوا نتيجة الأمراض المعدية التي تفشّت في الملجأ.[47] ولذلك فإن بقاءهم في ملجأ بن عكنون لم يدم طويلا، حيث ابتاع لافيجري القطاع المسمى البيت المربّع Maison Carré [48] – موضع المسجد الأعظم بالمحمدية حاليا– ونقل إليه بقية الأطفال – ما يربو على 600 طفل– في مطلع سنة 1870 حيث نشّأهم على النصرانية[49]، مُتحدّيًا الممانعة القوية من طرف السلطة العسكرية في الجزائر، حيث رفض التفريط فيهم باعتباره هو من افتكّهم من الجوع والموت.[50]

وفي تقدير أحد المؤرّخين الجزائريين واستنتاجاته المبنية على دراسة الوثائق والوقائع التاريخية، فإن استحداث ملاجئ الأيتام في الجزائر طبقا لتوجيهات لافيجري، أمر غير منفصل عن السياق السياسي والديني والاجتماعي الذي تندرج فيه، بل يُعدّ هذا المأوى التبشيري، أولى المحاولات الخطيرة التي اعتمدها لافيجري لإبعاد جيل (1867- 1868) عن الدين الاسلامي، [51] مستغلا الأوضاع الاقتصادية والصحية المتردّية للشعب الجزائري، فوجدها مرتعا خصبا لتحقيق أطماعه التنصيرية، تحت ستار تقديم "الاعانات" إلى الأطفال اليتامى[52] وغيرها من الوسائل نذكر منها الخدمات التعليمية والتطبيب. وفي نفس السياق نوّه الراهب بالدور الاعلامي لمجلة "صدى سيّدتنا الافريقية" التي أسّسها لافيجري وأشرف على تحريرها لاطلاع الرأي العام المسيحي في الجزائر وفرنسا على نتائج الحملات التبشيرية، ومن خلالها تم الإشادة بجهوده في إنقاذ الأطفال الجزائريين من الفاقة والجوع، رغم الصعوبات التي واجهته من العسكريين لكنه استطاع جلب تأييد واسع لأعماله ونشاطاته التبشيرية. [53]

وضمن هذا السياق، أفاد الراهب بأبرز الأساليب التي استُخدمت في تنصير الأطفال اليتامى، في مقدمتها الأعمال الخيرية باعتبارها أسهل وسيلة لتحقيق أهداف المبشّرين، إذ نوّه بجهود لافيجري وأعوانه الرهبان "الذي زال على أيديهم الكثير من البؤس، وعمّ الفرح في أوساطهم مع وفرة الطعام، واستبدال الملابس الدافئة بالخرق البالية التي كان يرتديها الأيتام، وسخّرت أيديهن للعمل". وركّز أيضا على مسألة التعليم المهني(الحرفي) الموجّه للأطفال الذكور والإناث، حيث خُصّ به يتامى مجاعة 1867، "حتى يتمكّنوا يومًا ما من كسب عيشهم بسهولة وبشكل مفيد". أما التعليم المهني الموجّه للإناث من قبل الراهبات، فشمل مهام التدبير المنزلي، ليكنّ في خدمة عائلات المستوطنين الأوروبيين، أو للاستفادة منها عند تزوجّهن مستقبلا". [54]

وبعد أن أنهى كتابه بإسداء الشكر للسلطة الدينية الممثّلة في كاردينال لافيجري والثناء عليه على ما بذله من جهود لمساعدة الأهالي المنكوبين في أوج الجفاف والوباء المزمن، وبعد سرد مضاعفاتها بكل تفاصيلها المروعة، أخبر في خاتمة مؤلفه أنّه شارف على إنهاء كتاب جديد حول جمال الجزائر وسحرها الطبيعي وأرضها الخصبة التي لا تنضب، ومناخها الألطف من الوطن الأم، آملا أن يتخلّص "الأهالي" من سباتهم الطويل من خلال احتكاكهم بالحضارة الفرنسية. [55]

7. خاتمة واستنتاجات:

بالرغم ما يكتسيه الكتاب من أهمية، باعتبار مؤلّفه شاهد عيان، عاصر شخصيا أحداث أليمة وفواجع ألّمت بالغالبية العظمى للجزائريين، وأوضح جلّيا أن المجاعة ووباء الكوليرا لم يكونا مجرّد أزمتين عابرتين، بل شكّلتا نقطة تحوّل عميقة في بنية المجتمع الجزائري، حيث تفاقمت المعاناة الانسانية وتردّت الأوضاع الاجتماعية وتقهقرت الأوضاع الاقتصادية فأثّرت سلبًا على النموّ الديمغرافي، ومن خلال مقاربتنا التحليلية لما طرحه من أحداث ورصدنا لها من مختلف الزوايا، أفسحت لنا المجال لاستجلاء أبعاد محتوى الكتاب، وتوصلنا إلى استخلاص النتائج التالية:

– إن نظرة الراهب وتحليله للوقائع التاريخية ينقصها عمق التحليل وتجنب الغوص في الدواعي الحقيقية لمأساة الجزائريين، وميله للبحث عن معلومات تؤكّد فقط أحكامه المسبقة عن الجزائريين، وتجاهل الأدلة التعارضية، وهنا تتضح ذاتية المؤلف، وابتعاده عن الموضوعية.

– لم نستشف أي انتقاد للسياسة الاستعمارية في مواجهة الوضع المتأزّم والتي كانت سببًا في إفقار السكان الأصليين خاصة الفلاحين، بينما أفسحت المجال للمستوطنين لمصادرة أراضيهم، وتجريدهم من كل أملاكهم، يُضاف إليها سياسة التهجير والتمزيق للنسيج الاجتماعي الجزائري، التي أدّت إلى تغيير جذري للنمط المعيشي للجزائريين بعد فقدانهم لأراضيهم، التي كانت مصدر عيشهم، وهذا ما نعتبره أحد أشكال العنف الإبادي الممنهج، وتشريعًا عنصريا لضمان هيمنة المستوطن الغازي على الأرض والانسان الجزائري.

– أبان الراهب في ثنايا مؤلفه عن تعصبه الأعمى ضد كل ما يمتّ بصلة للإسلام، واتضح ذلك جلّيا من خلال استهجانه لتلاوة الجزائريين للقرآن الكريم في الأضرحة، والتهكّم والسخرية لعدم "استجابة الرسول (ص) لتضرّع السكان في مصابهم الجلل".

– حمّل بورزي أغلبية الجزائريين مسؤولية تدهور أوضاعهم بتكاسلهم وتبنّيهم مبرّر القدرية، جازما أن الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية شكّلت أمرًا مقضيًا بالنسبة إليهم، باعتبارها قضاء الله المحتوم، وأمره نافذ ولا مفرّ منه، بدليل عدم اتخاذ أي احتراز وعلاج وقائي، مفضّلين العلاج عند الطالب أو المرابط بالرقية، أو باعتماد الطب النبوي "الحجامة".

– كان للجيش الفرنسي والمعمّرين على حد سواء تأثيرا سلبيا خلال هذه الأزمة الانسانية، بسبب سياستهم المنتهجة في زعزعة أمن ورفاهية المجتمع الجزائري، بحكم تجريد السكان من أراضيهم الشاسعة، ومصادرة مراعيهم الخصبة.

– يُعدّ هذا الكتاب عيّنة من الانتاج الفكري للرهبان والبعثات الكاثوليكية في أوجّ نشاطهم التبشيري، والتأكيد أن الحركة التبشيرية التي كانت تفتقر في عهد النظام العسكري إلى حرية ممارسة نشاطها التنصيري خشية انتفاضة السكان، أصبحت في

عهد النظام المدني تتمتّع بدعم أكبر، مما سمح للكاردينال لافيجري أن يلعب دورًا بارزًا في الحركة التبشيرية في الجزائر، حاملاً الصليب في يمينه والخبز في يساره لنشر المسيحية.

– إنّ مخططات التبشير الديني التي اعتمدت في أوّج هذه الأزمة الانسانية، كان الهدف منها استئصال شأفة الاسلام في الجزائر، إلاّ أنّها باءت بالفشل أمام صمود الجزائريين الذين كانوا على بيّنة من نوايا المبشّرين، فقاوموا كل أشكال نشاطهم التنصيري في مقدّمته التطبيب، الأعمال الخيرية وحتى التعليم الفرنسي.

8. الهوامش:

(1) تحتل متيجة موقعا استراتيجيا هامة، باعتبارها سهل واسع يمتد بين الساحل شمالا وجبال الأطلس البليدي جنوبا وجبال الناظور غربا ووادي يسّر شرقا. تشتهر بخصوبة تربتها وجودة حبوبها، وغزارة انتاجها الزراعي. كان سكانها يتشكّلون من العنصر المحلي وعثمانيين وموريسكيين. لعبت دورًا هاما خلال المقاومات الشعبية ببسالة سكانها وأعيانها في صد العدوان الفرنسي على الجزائر، فبعد احتلال مدينة الجزائر في 5 جويلية 1830، اجتمع شيوخ أوطان سهل متيجة في 21 جويلية 1830م برج تامنفوست (برج البحري)، بحضور الشيخ مُحَمَّد بن زعموم والحاج سيدي السعدي وقرروا إعلان الجهاد ضد الغزاة ومحاصرة الجيش الفرنسي داخل مدينة الجزائر، وفرض مقاطعة اقتصادية لمنع تزود الفرنسيين من أسواق متيجة. مما أثر سلبا على جيش الاحتلال الذي فكّر في محاولة تكسير الحصار بشن حملة عسكرية على مدينة البليدة بقيادة القائد العام الجنرال دوبورمون في 23 جويلية 1830 تعدادها 1400 جندي إضافة إلي بطارية مدفعية وفرقة قناصة، إلا أنها فشلت في اقتحام أسوار المدينة لقوة صد قبائل بني صالح وبني خليل وبني موسى وحجوط، وفي طريق العودة تصدت له المقاومة بزعامة مُحَمَّد بن زعموم، فخسر على إثرها 150 جنديا بين قتيل وجريح، بعد هذه الهزيمة، عزم الجنرال كلوزيل على شن حملة ثانية على البليدة في 17 نوفمبر 1830 قوامه 8000 جندي وضابط، مما مكّن من احتلال البليدة في 18 نوفمبر 1830 لكنهم انسحبوا منها لصمود المقاومين الذين واصلوا جهادهم بزعامة مُحَمَّد بن زعموم والحاج سيدي السعدي، وأعيان متيجة، مما حال دون توسع قوات المحتل، إلى أن سقطت مدينة البليدة في 3 ماي 1838 نظرا لعدم تكافؤ القوى. تحوّلت أراضي متيجة الشاسعة بعد احتلالها إلى أملاك المستوطنين عن طريق المصادرة بانتزاعها من أصحابها، وتوظيفهم كخماسين، فاضطر سكانها إلى هجرتها نتيجة التهجير الاضطراري الممنهج من قبل جيش الاحتلال. للمزيد من التفاصيل انظر/

Chaulet Claudine, **La Mitidja autogéré , Enquête sur les exploitations autogérées agricoles d'une région d'Algérie 1970- 1968),** 1er éditions S.N.E.D Alger, 1972, pp 23 -26.

وأيضا/ مجموعة باحثين، **العدوان الفرنسي على الجزائر – الخلفيات والأبعاد**، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، إصدارات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 بمناسبة الذكرى الـ 45 لعيد الاستقلال والشباب، 2007، ص ص 131- 133.

(2) للمزيد من التفاصيل حول مجالات نشاطها العلمي، انظر على سبيل التوضيح انظر/

Bulletin Hebdomadaire de l'association scientifique de France, T 3 , Gauthier – Villards, imprimeur – Librairie, Paris, 1868, pp 5- 464. In https://data.bnf.fr › association scientifique _de France, consulté le 18/02/2026, 09H33.

(3) جريدة فرنسية صدر عددها الأول بالجزائر العاصمة بتاريخ 12 جويلية 1839 من قبل المطبعي Auguste Bourget. كانت متنوعة الأخبار، منها الاقتصادية، السياسية والتجارية. تحوّلت من جريدة أسبوعية إلى جريدة يومية. وبعد توقّفها عن الصدور في 30 سبتمبر 1897 ظهرت من جديد عام 1902 بنفس العنوان وتولى رئاستها Victor Barrucaud الذي عرف بتعاطفه مع الجزائريين. تدعّمت صفحاتها بالفرنسية بصفحات باللغة العربية، ومن

أبرز المحرّرين في القسم العربي "عمر بن قدور" و"عمر راسم"، تميّزت أقلامهم بجرأتهم في الدفاع عن مصالح الجزائريين ضد استفزازات المستوطنين. توقّفت عن الصدور عام 1924. انظر/ كلتوم ميدان، **الصحافة في مدينة الجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي 1830– 1939**، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية ، المجلد السابع/ العدد الأول ، جانفي 2025، ص ص 128- 129.

(4) Burzet curé de chebli, « chronique», in Revue Africaine, Numéro 11, Année 1867, pp 333-334.

(5) **ibidem.**

(6) بالإمكان تحميل النسخة الالكترونية للكتاب من المكتبة الرقمية للمكتبة الوطنية الفرنسية ومُتاح أيضا للمطالعة بمكتبة المركز الأسقفي للدراسات والأبحاث بالجزائر العاصمة (إعارة داخلية)

Centre d'Étude Diocésain - Les Glycines .cote/ 965.40 _BUR.03 - Fond. propre

(7) Burzet, **op.cit**, p 5.

(8) **ibid**, pp 7-54.

(9) للمزيد من التفاصيل حول اجتياح الجراد خلال هذه السنة والسنوات التي تلتها، انظر/

Jules Kunckel d'Herculais, **Invasions des acridiens (Vulgo sauterelles en Algérie)** , Alger, 1893, p 56 .

(10) للاستزادة أكثر حول خطورة وباء الطاعون والتيفوس وأعراضهما ومخلّفاتهما، انظر: صليحة علامة، الوضع الصحي في مقاطعة الجزائر 1830-1930، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ، جامعة الجزائر ، السنة الجامعية 2000-2001، ص ص 66- 68. وأيضا/

E. Battarel. **Etude sur quelques cas de typhus**, **épidémie algérienne 1868**, imprimerie. Nouvelle, Paris,1872, pp 3-20.

- Docteur Amédée Maurin, **Le typhus exanthématique ou pétéchial: Typhus des Arabes, épidémie de 1868,** imprimerie national, Paris, S.D pp 4 –100.

(11) كان نمط السكن الغالب في عدة مناطق من الوطن في مختلف مراحل الاحتلال يتمثل في سكنات القوربي (بتثليث القاف)، الذي بُني غالبا من أعراف الأشجار المرفوعة بعصي كركائز ، ويسقف بنبات الديس أو القش، ويولج إليه من مدخل واطئ ، وهي عديمة التهوية والإنارة، وتتميّز بروائح كريهة، وطريقة بنائها تعكس المستوى البائس لقاطنيها . للمزيد من التفاصيل انظر/

Doutté Edmond - Bernard Augustin , «L'habitation rurale des indigène de l'Algérie », **Annales de géographie**. Volume 26, N° 141, Année 1917, P 221.

(12) Burzet L'Abbé , **Histoire des désastres de l'Algérie 1866-1867-1868, Tremblement de terre-Choléra, Famine,** imprimerie centrale Algérienne, Alger, 1869, pp 55 - 56.

(13) **ibidem.**

(14) **ibid,** p 59.

(15) شارل مارسيال لافيجري ، من مواليد 31 أكتوبر 1825. التحق بمعهد الدعاية التبشيرية بسان لويس دوقوزاني ثم المدرسة الاكليركية الصغرى للدراسات الأسقفية بلاروسور. ابتداء من عام 1840 دخل المدرسة الاكليركية سان نيكولا وشاردوني بباريس ليتحول عام 1843 إلى المدرسة الاكلركية الكبرى بسان سوبليس ديسي بباريس. وفي عام 1845 انتقل إلى المعهد الاكليركي لعلم اللاهوت، ثم معهد الدراسات المسيحية بمدينة كارم عام 1846 تحصّل خلالها على شهادة البكالوريا ثم ليسانس عام 1847. وقد تخصّص في علم اللاهوت ليترقى إلى منصب قس في 02 جوان 1849. وفي عام 1860 التقى بالأمير عبد القادر في الشام. ما بين 1863 و 1866 عين مطرانا على مدينة نانسي الفرنسية ليعيّن بعدها عام 1876 مطرانا على أسقفية الجزائر . وفي 1868 عيّن مندوبا رسوليا بابويا لمنطقة الصحراء وافريقيا ليدشّن بذلك رسالته التنصيرية مدعما من طرف الادارة الاستعمارية في الجزائر، وهو النشاط الذي سمح له في 19 مارس 1882

أن يترقى إلى مرتبة كاردينال بموجب المرسوم التنفيذي البابوي الذي أصدره البابا بولس الثالث. كان من أشدّ المدافعين عن المستوطنين ويحظي بشعبية كبيرة في أوساطهم والمناهضين للإدارة العسكرية، ودخل في خصومة مع حكومة ماكماهون مما دفع هذا الأخير إلى المطالبة بتعليق مهامه. وافته المنية في 26 نوفمبر 1892 بالجزائر، ونقل جثمانه إلى تونس على متن باخرة لوكوسماو. وفي قرطاج دفن بكاتدرائية سان لويس التي بناها بنفسه. للمزيد من التفاصيل انظر/ القرص المضغوط حول تاريخ الجزائر1830- 1962، إصدارات م. و. د. ب. ح. و. ث. ن 54، سنة 2004، وأيضا: شارل روبير أجرون، الجزائريون **المسلمون وفرنسا 1871– 1919**، الجزء الأول، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007، ص ص 91-93.

(16) المقصود بهن "الأخوات البيض " les sœurs blanches تم تأسيسها مع جمعية الآباء البيض les pères blancs من قبل المطران لافيجري سنة 1867 عندما حلت المجاعة بالشعب الجزائري ، وذلك ليقدّم أفرادها رغيف الخبز بيد وصليب المسيح باليد الأخرى للمنكوبين الجزائريين. انظر: Mgr Louis Baunard, **le cardinal Lavigerie**, T2 , éditions J.De Girord , 1922, p 30 .

(17) L'Abbé Burzet , **op. cit**, p 59.

(18) مُحَمَّد الطاهر وعلي، **التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904 دراسة تاريخية تحليلية**، منشورات دحلب، الجزائر، 1997، ص 42.

(19) L'Abbé Burzet , **op. cit**, p 62.

(20) **ibid,** p 63.

(21) **ibid,** p 64.

(22) **ibidem**.

(23) L'Abbé Burzet , **op. cit**, p 65.

(24) **ibidem**.

(25) **ibidem**.

(26) **bidem**.

(27) فرقة بحث، **الاعلام ومهامه أثناء الثورة** ، أشغال الملتقى الوطني حول الاعلام والاعلام المضاد، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، سنة الطبع 1998، ص 333.

(28) **ibid,** p 68.

(29) **ibid,** pp 68- 69.

(30) **ibid,** p 71.

(31) للمزيد من التفاصيل انظر/ جيلالي صاري ، **تجريد الفلاحين من أراضيهم 1830– 1930** ، ترجمة: قندوز عباد فوزية، دار غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص ص 9- 51.

(32) L'Abbé Burzet , **op. cit**, pp 71-74.

(33) **ibid,** pp75 -76.

(34) **ibid,**, pp 76-77.

(35) **ibid,** pp 78-79.

(36) إيدمي باتريس موريس دي مكماهون من مواليد 13 جوان أو جويلية 1808 من عائلة كاثوليكية ايرلندية الأصل، تخرّج من مدرسة سان سير العسكرية بوسام فارس اللفيف الشرفي، أصبح ضابطا برتبة نقيب ثم عقيدا وانتهى جنرالا وعمره 39 عاما. شارك في حروب القرم، وحروب إيطاليا، و في الحصار البحري للجزائر وفي الحملتين العسكريتين على قسنطينة. وقاد حملة ضد سكان ميلة في جوان 1857، احتل منطقة جرجرة عام 1857. وقادته حملاته العسكرية إلى غاية مشارف الصحراء الجزائرية. عين حاكما عاما على الجزائر من 1864 إلى 1870. كان في خلاف حاد مع لافيجري في قضية التبشير الديني، وتم

انتخابه رئيساً للجمهورية الفرنسية من قبل الأغلبية البرلمانية الملكية في 24 ماي 1873 إلى غاية 30 جانفي 1879. وافته المنية في 17 أكتوبر 1893. انظر: مجموعة باحثين، العدوان الفرنسي...، **مرجع سابق**، ص 326.

(37) L'Abbé Burzet , **op. cit**, p 82.

(38) تجنّب الراهب ذكر ما أقدم عليه المعمّرين خلال سنتي 1867-1868 بهدف إبعاد الجزائريين الفارين من جحيم المجاعة عن المدن، حيث استحدثوا "مستودعات المتسوّلين " Dépôts de mendicité حشدوا فيها آلاف الجزائريين الذين اضطرهم الفقر لمغادرة قراهم، وتكفّلت قوات الشرطة والجيش بتشتيتهم في الأرياف بقوة. وهذه العمليات كانت تتم تحت إشراف طاقم من الأطباء العسكريين والممرضين المكلّفين بإعداد تقارير يومية. للمزيد من التفاصيل انظر: مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات في الجزائر، ترجمة حضرية يوسفي، منشورات ANEP، المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار، الرويبة، 2013، ص ص 111، 120.

(39) L'Abbé Burzet , **op. cit**, p 83.

(40) **ibid** , p 86.

(41) Moniteur d'Algérie ثاني صحيفة ثاني تصدر في الجزائر، بعد صحيفة "لاستفيت دالجير"، استحدثها البارون لويس أندري بيشون المفوض المدني للجزائر 1832. صدرت الأعداد الثلاثة الأولى منها بتاريخ 27 جانفي 1832 . وكانت الصحيفة ثنائية اللغة: الفرنسية والعربية. وظل القسم العربي مطبوعًا بالحجر إلى غاية العدد 26 الصادر في 28 جويلية 1832، حين ظهر تصميم الطباعة بالحروف العربية. وهي بمثابة نشرة رسمية لإبلاغ القرارات عنوانها بالفرنسية وبالعربية "ورقة أخبار الجزائر" . تصدر أسبوعيا في أربع صفحات. وكان حجمها نصفي . وقد جاء في قرار إصدارها أنها لا تنشر المقالات السياسية الخاصة بالحكومة أو الادارة في الجزائر، بل تنشر فقط قوانين المملكة الفرنسية وبلاغات وإعلانات قيادة الجيش الفرنسي. انظر: زبير سيف الاسلام، **تاريخ الصحافة في الجزائر**، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص 15.

(42) L'Abbé Burzet , **op. cit**, p 87- 88

(43) خديجة بقطاش، **الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830– 1871**، مطبعة دحلب، 1992، ص ص 108- 109.

(44) L'Abbé Burzet , **op. cit**, pp 81- 92.

(45) يبدو تأثّر الراهب واضحا من الأنباء التي تنشرها الصحف الاستعمارية إلى حد اعتمادها في تأليفه، منها جريدة "الأخبار" المعروفة بتهكمها وأحكامها المسبقة بخصوص كثرة وفيات الأطفال، نذكر عيّنة منها في ما يلي: "إن قلة حب العرب لأولادهم واللامبالاة العميقة بالمحافظة عليهم وعلى صحتهم وتربيتهم .... فلا يعرف الحنان الأبوي لدى أغلبيتهم". .104 p ,**ibid**

(46) L'Abbé Burzet , **op. cit**, pp 104-106.

(47) Jules Tiquet , **les colons arabes chrétiens du cardinal Lavigerie, maison carré**, imprimerie des pères blancs, 1936, pp 28-31 .

(48) LESOURD Paul, **les pères blancs du cardinal Lavigerie**, éditions B. Grasset, 1935, p 65 .

(49) Jules Tiquet, **op. cit**, p 32.

(50) Lavigerie cardinal, **Œuvres Pastorales, compte rendu au Pape Léon XIII**, date de Mai 1878 , imp, Jourdan, Alger, p 35.

(51) صاري الجيلالي ، **الكارثة الديمغرافية 1867– 1868**، ترجمة عمر المعراجي، منشورات ANEP ، الجزائر، 2008، ص 111.

(52) Mgr Louis Baunard, **le cardinal Lavigerie**, T 1, éditions J. de gigord, 1922, p 156 .

(53) L'Abbé Burzet , **op. cit**, p 109 .

(54) **ibid**, pp 106-107.

(55) **ibid**, pp 111-112.